# رحلة إلى فينا للمرة الأولى

أشرقت عبقرية الفتى « بيتهوفن » و بدأ سناها يتلألأ فى سماء الفن ، فنوه بها الشريف « فالدشتين » إلى الأمير المطران ، وتمنى لو تفضل الأمير فأحاطها بما يكفل ازدهارها فأمر أن يبعث به فى رحلة إلى « فينا » فرحل إليها فى ربيع عام ١٧٨٧ وقد جاوز السادسة عشرة من عمره . كان ذلك لأن عاصمة القيصرية النمسوية كانت إذ ذاك المدرسة العالية للفن الموسيقى يتألق فى سمائها نجوم ثلاثة هم « جلوك » و « هايدن » و « موتسارت »

غادر الفتى مدينة « بون » فتحطمت فى تلك اللحظة سلاسل استعباده المنزلى ، وتخلص من أغلال تحكم أبيه ، واتخذ سبيله بحراً فى بلاد « الرين » الجميلة فى نهرى « الرين » و « الماين » يزامله أمل يرتسم فى صفائه كل معانى ازدهار المستقبل ، وما كان أسعد نفسه كلما اقترب من تحقيق رجائه فى المقام فى موطن الفن و بين أعلامه .

وصل « بيتهوفن » مدينة « فينا » فخلب لبه ما رآها عليه من ضخامة وعظمة لا عهد له بهما من قبل . كان عدد سكانها وقتئذ يربى على ربع المليون نسمة وقد طبعت المدينة بطابع دولى ، يغدو الأجانب فيها و يروحون فى أزيائهم الوطنية .

وكذلك كانت « فينا » مركزاً للموسيقى ، تنتشر فى أرجائها دور

اللهو على اختلاف أنواعها ، وكانت الطبقة الراقية فيها مدللة فى السماع لا يرهفون آذانهم إلى لسماع أرقى صنوف النتاج الموسيقى مما كان يبتدعهلهم « جلوك » و « هايدن » و « موتسارت » وغيرهممن أعلام الفن المقيمين فى « فينا » من ألمان و إيطاليين

زود النبيل « فالدشتاين » وهو نمساوى ، الشاب « بيتهوفن » برسائل كريمة يوصى به طائفة من علية الأكابر فتفتحت له بعض أبواب بيوت الأشراف ومهدت له اليها السبل .

ولقد قصد إلى الرجل الذى كان موضع إجلاله و إكباره وكان لفنه فى قلبه مكان الروعة والتقديس، ذلك هو « موتسارت » الذى كانت أوبراه « زواج الفيجارو » تغزو حينذاك جميع مسارح المدن الكبرى فى ألمانيا والنمسا .

دخل « بيتهوفن » الغرفة على « موتسارت » صبياً فى مقتبل العمر وفى وجهه أثر الجدرى فأشبع ناظريه منه ثم قال له فى حياء :

— أى أستاذى ، إننى قادم من مدينة «بون» حيث أعزف فيها بالأرغن فى فرقة الأمير ، وما كدت أصل إلى «فينا» . . .

فقاطعه « موتسارت » بقوله :

— هل أنت عازف بالأرغن حقاً ؟ إنك لا تزال صبياً .

— لقد بلغت السادسة عشرة ولكنى فى حاجة إلى ازدياد تعليمى حتى أكتسب ما يقوم بأود والدى و إخوتى .

« موتسارت » أستاذ « بيتهوفن »

هنالك طلب « موتسارت » إلى الشاب « بيتهوفن » أن يسمعه شيئا على البيانو ، فجلس إلى الآلة ، وأخذ يبتدع عليها ألحانا مرتجلة كانت غاية فى السمو ونهاية فى السحر .

وإذ انتهى من عزفه وجه « موتسارت » اليه كلمة ثناء خالها « بيتهوفن » ضربا من المجاملة ،ذلك بأن «موتسارت» اعتقد أن بيتهوفن كان قد أعدهذه الألحان من قبل فشرع يعرضها عليه كأنها إلهام هبط عليه ، فلما تنبه « بيتهوفن » إلى ذلك طلب إلى أستاذه الموسيقار أن يختار له موضوعا ، وأن يعطيه فكرة موسيقية ليرتجل منها ما يشاء . فجلس « موتسارت » إلى البيانو وبدأ فى عزف فكرة موسيقية ، ثم طلب إلى الشاب أن يسير على منهاج هذا اللحن ارتجالا .

جلس الصبي « بيتهوفن » إلى البيانو وقد بدأ العزف فى خجل ظاهر ، ولـكن ما أسرع ما اندمج فيه حتى تلاشى فى الموسيقى وأصبح لا يحس شيئاً حوله إطلاقا ، ولا يشعر إلا بوحى الموسيقى والهامها .

كان فى هذا العزف مفاجأة لموتسارت ، فإنه لم يكن يتوقع من هذا الصبي كل ذلك النبوغ الذى لا يدل عليه مظهر الصبا ، وأخيرا نهض « بيتهوفن » بعد أن طبع «موتسارت» على جبينه قبلة التقدير هنالك قال بيتهوفن :

— أتسمح لى أن أتتلمذ عليك فتعطينى دروساً أتمم بها فنى ؟

— نعم وسأبدأ معك من الغد

انصرف « بيتهوفن » ثانيَ عِطفيه يكاد قلبه يثب من صدره

من شدة الفرح أن نال بغيته ، وأصاب طلبته ، و بلغ أمنيته .

وكان إعجاب « موتسارت » بفن الشاب « بيتهوفن » إعجاب تقدير صادق لعبقريته ونبوغه أنطقـــــة فى ذلك الحين جملته المأثورة الباقية :

« اعتنوا بهذا الصبى فسيكون حديث العالم فى المستقبل »

ولـكن « بيتهوفن » لم يتلق على « موتسارت » كثيراً من الدروس فقد انشغل عن تلميذه بإعداد أو براه الجديدة التى تعاقد مع مذينه« براج » على تلحينها و إخراجها فانصرف اليها بكل ما أسبغ الله عليه من مواهب وحس وشعور ، ونسى التلميذ .

ومن دواعى الأسف أيضا أن اتصالهما بفينا لم يؤد إلى توثيق الروابط بينهما ولا إلى التفاهم الذى يقر بهما بعضهما من بعض ذلك بأن ما انطبع عليه كلاهما من الخلق والعادات كان متباينا حتى لقد كانا يختلفان فى الظواهر الخارجية ، فكان « موتسارت » رقيق المزاج وديع الأخلاق لين العريكة ، نقيض ما كان عليه « بيتهوفن » من ضخامة الجسم ، وكبر الرأس كالأسد ذى العينين المتوقدتين ، وكان « موتسارت » مرحا حلو الفكاهة شأن أهل « فينا » بينما كان « بيتهوفن » جاداً صموتا لا يجيد أساليب التحدث إلى الناس واجتذابهم اليه فلم تسعفه عبقريته الموسيقية وحدها باجتذاب شخصية« موتسارت » اليه وحملها على الاهتمام به مدة إقامته فى « فينا » وهى لم تزد على الستة الأسابيع.

كان هذا اللقاء آخر لقاء بين هذين العلمين طوال حياتهما ، فإن

« بيتهوفن » عند ما زار « فينا » للمرة الثانية كان « موتسارت » قد لقى ربه . لكن ذلك الذى جرت به الأقدار لم يمنع « بيتهوفن » من تقدير فن « موتسارت » فظل مدى الحياة يشيد بذكره و يتحدث بمآثره الفنية . وأية عبقرية تستطيع تقدير « موتسارت » ونتاجه وسمو فنه أولى من عبقرية « بيتهوفن » ! ! !

لعنت البؤسى فهى تتأثر خطى « بيتهوفن » لا تفارقه ولا تريحه ، فلقد تبعته فى مراتع آماله فنغصت عيشته وقطعت عليه مناعم الفن ، ذلك أنه تلقى رسالة من والده ، ولما يقض من « فينا » لبانة أو يفيد منها فائدة فنية تذكر ، تتضمن شدة وطأة المرض على والدته وتطالبه سرعة العودة للوطن .

تعجل « بيتهوفن » مكروباً محسوراً ولكن ما لديه من مال كان لا يكفى مؤونة السفر ، فلقد كان فى أثناء مقامه « بفينا » يتقاضى وظيفته كعازف بالأرغن فى فرقة البلاط وهى لا تزيد على خمسة عشر جنيها فى العام ، وأنى لهذا المرتب الضئيل أن ينهض بنفقاته فى مدينة كبيرة كفينا وهى قلب أوربا وعاصمة القيصرية ؟

ولكن هل يحول المال بينه و بين والدته وهى مشرفة على الموت وكانت أحب الناس إليه وأعزها عليه ؟ ليس هذا فى طبيعة بيتهوفن ولا هو من عزيمته فى شىء ، إذاً فقد تغلبت عاطفة البنوة فذللت كل صعب وسافر وما فى جيبه من المال لا يغنيه إلا قليلا .

فلما بلغ مدينة ( أوجسبورج ) نفد كل ما معه من مال ولـكن الله لا يغفل عن الأبناء البررة فأتاح له أن يتعرف إلى أحد السفّر وكان رجلا وديعاً مشغوفاً بالموسيقى هو المحامى الدكتور «شادا Schade» الذى أمده بثلاثة جنيهات تمكن بها من متابعة رحلته .

ولقد أغفل «بيتهوفن» غير عامد الـكتابة إلى هذا المحامى الذى أنقذه فى الطريق و يسر معسرته فلم يراسله إلا بعد أن مضى ما يقرب من أر بعة أشهر على تعارفهما ، إذ كتب إليه فى ١٥ من سبتمبر الرسالة التالية التى تجلى عن شعور «بيتهوفن» فى ذلك الوقت والتى تعتبر وثيقة هامة يحتفظ بها التاريخ قال :

« صديقى العز يز وسيدى المحترم

أستطيع فى غير جهد أن أقرأ ما يجول فى خاطرك عنى وأحسب أنك محق أو على الأقل لك العذر فيما تخيلت ، ذلك أن جميع الظروف خاصمتنى والتوت علىّ ، فتوافر لديك من الأسباب ما يحملك على سوء الظن بى . ولا أر يد أن أرجو عفوك قبل أن أوضح لك الأسباب التى تشفع فىّ وتعلن براءة ساحتى .

ما كدت أبرح مدينة «أوجسبورج» حتى برحتنى العافيـة والحظ معاً . لـكنى رغم علتى أسرعت فى العودة مخافة ألا أتمكن من رؤية والدتى فى الوقت المناسب ، فكان هذا الخوف حافزاً لى على التغلب على الصعاب .

و بلغت « بون » ، وكانت والدتى لا تزال تتنسم الحياة وإن كانت علتها مهلكة ، ولقد قضيت إلى جانبها ، مسلوب القلب ، سبعة أسابيع حتى لقيت ربها ( فى ١٧ يولية سنة ١٧٨٧ ) وخلفتنى أتلمس بعدها أحن والدة وأعز صديقة وأرحم قلب .

لم يكن أحد أسعد منى حظا حين كانت شفتاى تنطقان الاسم الحلو « ماما » ، أو عند ما كانت هى تنادينى باسمى . وها أنذا أصبحت وحيداً لا أجد من أناجيه غير طيفها الصامت الحى الذى يثقل كاهل حياتى .

ما دخلت منزل والدى حتى أدبرت ساعات مسراتى أو صارت غاية فى الندرة ، وأصابنى ضيق فى النفس ، وقد يصل بى إلى داء السل [1] ذلك فضلا عن انقباض صدرى الذى لا يفارقنى ، والذى لا يقل ثقلا عن المرض .

ضع نفسك مكانى ولو قليلا ، إنك ولا ريب ، ستقبل معذرتى من إغفالى الرد عليك طوال تلك المدة .

أما الجنيهات الثلاثة التى تفضلت بإمدادى بها فإنى أرجو أن تغفر لى عجزى عن وفائها اليوم « ونظرة إلى ميسرة » .

لقد اقتضتنى رحلتى كثيراً من النفقات ، لما أوفق إلى عوضها . إن حظى فى مدينة « بون » حظ منكود ... أرجو عفوك إذا كنت

---

(١) عاش بيتهوفن طوال حياته متوهما أنه سيمرض بمرض السل الذى ماتت به والدته .

أزعجتك بثرثرتى فلقد رأيت ذلك لزاماً علىّ حتى تتبين ظروفى وتجد سبباً للعفو عنى .

وأرجو أن تحفظ لى صداقتك الغاليـة ، وأن أظل فى نظرك موضع الاعتبار .

وإنى مع عظيم احترامى

خادمك المطيع وصديقك المخلص

لودفيج فان بيتهوفن

عازف الأرغن ببلاط أمير كولونيا

* * *

وفى الحق إن هذه الأسابيع الأخيرة من حياة والدته كانت أقسى ما لاقاه « بيتهوفن » فى حياته من الشدة والبؤس ، فلقد كان يرى مرض السل ينشب أظفاره فى أعز الناس لديه ، وهى فوق ما تقاسيه من آلام المرض تعانى أضعافه من نكد العيش وهموم الحياة ، وكان ولدها يحز فى نفسه أن تكون هذه حال والدته مع ما هو فيه من المرض وشدة الفاقة ، فقد بلغت هذه الأسرة من المعسرة أشدها ومن المتربة منتهاها حتى كان المسكين « بيتهوفن » يرى بعينيه ملابس والدته تباع فى السوق لسد الرمق وبلوغ الكفاف من العيش ، وزاد عبء الحياة على كاهل الولد المسكين بانصراف والده إلى إدمان الخمر وإفراطه فى ذلك الإدمان يوماً بعد يوم ، وعدم شعوره بمسئولية

البيت ، فأخذ الولد على عاتقه عبء الإنفاق عليه واحتمال مشاقه المضنية

وأبى القدر إلا أن تبلغ هذه الأسرة فى ذلك العام منتهى البؤس ، وأن تستكمل فيـــــه نواحى الشقاء ، فقضت فى أواخره الطفلة « مرغريت » شقيقة « بيتهوفن » على أثر وفاة والدتها ، ولم تقطع من العمر أكثر من عام .

# حياة جديدة

مرض الموت الذى اعتلت به الوالدة ، والنفقات المرهقة التى استنفدها المرض والموت ، وإسراف الوالد فى إدمان الخمر وتهالكه فى تعاطيها ، ورقة الحال التى كانت تعانيها تلك الأسرة ، كل أولئك فت فى عضدها وأنهك قواها وأنزل بساحتها الفقر والبؤسى ، وأثقل كاهلها بأحمال الدَّين .

كان الوالد ، وحده ، يبذر فى الخمر وينفق فى شربها كسبه ويزيد فيركن إلى الاقتراض والاستدانة ، وكان على « لودفيج » وحده تدبير المعيشة ، ومقتضياتها وعَوْل والده وشقيقيه اللذين بلغ أحدهما السادسة عشرة من عمره ، وقطع الثانى الحادية عشرة منه كما كان عليه الإنفاق فى تعليمهما ، وتربيتهما .

ولئن كان هـذا العبء مما ينوء به الرجل العادى لقد يزيد فى ثقله كون هذا الشاب فناناً يعيش فى فنه ، ولم يتعود التفرغ لغيره من وسائل جمع المال ، لذلك كان عليه مضاعفة الجهد الفنى ، واستنفاد الطاقة حتى نجح ، وكان نجاحه دليلا قاطعاً على قوة إرادته ، وشدة عزيمته .

لقد رأى الفنان الشاب فى « فينا » من روعة الفن ، وعظمة

الفنانين ما جعله يتفانى فى فنه ويبذل النفس فيه ، ولكم كان يتمنى أن يتفرغ لدراسته ، وأن ينقطع لمتابعة إنتاجه وتواليفه الموسيقية لإشباع نهمته وتحقيق رغبته ، ولكنه للأسف ، وقد وجد نفسه حيال مطالب أسرته وما تدفعه للتكسب بما يقيم أودها ، لم ير بداً من معالجة ما يكره وما يكرهه كل فنان عبقرى من إعطاء الدروس الموسيقية الخاصة .

المحن محك الصدور ، ومثار الرحمة والحنان ، ومبعث المحبة والرفق . وكذلك كانت محنة « بيتهوفن » فقد أثارت إشفاق القلوب الرحيمة والنفوس العظيمة ، ففاضت عاطفة النبيل « فالدشتاين » رقة وحناناً ، وأمد الفتى بألوان مختلفة من العون والمساعدة فى غير منّ ولا إعلان حتى لكانت وسائل معاونته وإحسانه تكاد تخفى على « بيتهوفن » .

أما صديقه « فرديناند ريس F. Ries » فقد كان مثال الإخلاص والوفاء والتضحية . كان إذ ذاك رئيساً لإحدى الفرق الموسيقية فى مدينة « بون » ويعمل أيضاً فى فرقة البلاط فتوطدت بينه وبين « بيتهوفن » روابط الصداقة وتوثقت عرى المحبة ، فما حل الخطب حتى وقف إلى جانب صديقه ، يواسيه ، ويخفف عنه فجيعته فى والدته ، ويشد أزره ويسعفه بما هو فى حاجة إليه من معونة مادية فى تلك الظروف القاسية . وإذ كان « بيتهوفن » يحمل قلباً يحفظ الود ، ويعترف بالجميل ، فقد احتفظ فى نفسه بجميل صديقه وحسن صنيعه ، وسيتجلى لك فيما بعد

مدى احتفاظ « بيتهوفن » بما أسدى اليه من جميل فيما يقدمه مستقبلا ، اعترافاً منه بإحسان هذا الصديق .

بعد وفاة الأم وكلت أعمال المنزل إلى خادم تدبر شئونه وتقوم على إدارته . وانتقلت الأسرة من مسكنها الوضيع فى « حارة بون » إلى مسكن أكثر ضعة فى « حارة وتسل » وتمادى الوالد فى الشراب واتخذ له من الحانات مقراً . وكانت حاله تسوء فى كثير من الأحيان فيضطر « لودفيج » إلى الذهاب إليه لإحضاره . وبلغ به الأمر أن خلصه مرة من يد البوليس .

كان لا بد ، إذن ، أن يطرد الوالد من خدمة الأمير المطران مشيعاً بالخزى ، موصوماً بالعار ، وكان ذلك متوقعاً فى كل لحظة ، لما انتهى إليه من فساد السيرة ، وسوء السلوك .

وشاء « لودفيج » أن يحتاط للأمر فيتداركه قبل وقوعه ، وقبل أن توصم أسرته بطرد أبيه ، فتقدم هو إلى الأمير ملتمساً إعفاء الوالد من خدمته ، فحقق رغبته ، وأجاب ملتمسه .

كان مرتب الوالد وقتئذ قد بلغ ثلاثين جنيهاً فى العام ، فلما انفصل من الخدمة رأى الأمير الكريم أن يجرى عليه مدى الحياة نصف الوظيفة ( أى ١٥ جنيهاً ) ، وأن يزاد نصفها الآخر على وظيفة ولده « لودفيج » ليتمكن من إصلاح شأنه ، ووفاء ديون أبيه ، وعول شقيقيه ، كما أمر بإعطاء « لودفيج » عشرة أرادب من القمح سنوياً معونة له على تربية هذين الشقيقين .

إن ما اتصف به الوالد من الحدة وثوران الغضب ، ووضاعة الخلق وفساد السيرة والاعوجاج ومقارفة أمهات الرذائل ولّد فى الابن « لودفيج » صفات غير رضية أهمها العناد ، والتسخط ، والتبرم بالناس وازدراء أوضاعهم ، وما تصالحوا عليه من التقاليد .

وتمّى هذه الصفات فيه ما كان يراه طوال طفولته ، مما أدمى قلبه وعكر صفاء نفسه ، كان يرى أمه دائماً حزينة مثقلة بنكبات الدهر مستسلمة إلى البكاء والتفجع أمام بوائق الفاقة وقسوتها .

ولقد كان يحز فى نفسه أن يتزايد عطف أمه وحنوها عليه كلما اشتدت به غلاظة أبيه وفظاظته ، وكلما رأى تلك الأم الضعيفة المتهالكة تتحمل المشاق والضنا فى السهر على راحته ومساعدته وهو عاجز لا يملك أن يبرها أو يرد عنها أذى . لكنّ هاتين الحالتين المتناقضتين — عسف الأب ، وحنان الأم — أورثتاه الجبن وعدم الاعتماد على النفس والغرور .

هذا ما ورثه من السوء عن أبويه ، فما الذى اكتسبه منهما من الصفات الحميده ؟

قد يكون فيما عرضناه من سيرة الوالد ، وفيما أشرنا إليه من فقر نسب الأم وما يمكن أن تكون عليه ثقافة ابنة طاه ما يكفى للإجابة عما نتساءل عنه .

فى الحق إن بيت « بيتهوفن » لم يكن ليخرج هذه العبقرية

الفذة ، ولا أن يكوّن هذه الشخصية البارزة ، لولا أن تداركها الله بلطفه وأحاطها بعنايته تدعيما للفن ، وتخليدا للموسيقى الباهرة ، فقيض لها من انتشلها من الهاوية وأنقذها من البوار ، وكان ذا تأثير قوى فى صقل قلب « بيتهوفن » وتهذيب نفسه .

كانت تقيم فى مدينة « بون » سيدة شريفة مثرية وقورة ، هى النبيلة « فون برونينج Breuning » أرملة أحد أمناء البلاط ، وكان لها ثلاثة أولاد تتفاوت أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة وابنة فى الخامسة عشرة من عمرها اسمها « إليونورا » ويلقبونها فى البيت دائما «لورا الصغيرة» . وكان الموسيقار « ريس » صديق « بيتهوفن » يقوم بإعطاء دروس فى العزف بآلة الكمان لثانى أبناء هذه الأسرة ، فأراد خدمة صديقه « بيتهوفن » بعد عودته من « فينا » فمهد له السبيل للوصول إلى هذه الأسرة والتعرف إليها ، فاتفقت النبيلة معه على أن يعطى دروساً فى البيانو لأصغر أبنائها « ستيفان فون برونينج » الذى ظل طوال حياته صديقاً حميما لأستاذه « بيتهوفن » ، وكان إلى جانبه فى ساعة موته .

وهنا كان قد بلغ « بيتهوفن » السن التى يشعر فيها المرء بما ينقصه من التربية والتعليم . وتأسست فى ذلك الوقت جامعة مدينة « بون » فأصبحت المدينة مركزاً للثقافة ، ومنتدى للعلماء والمثقفين . لكن « بيتهوفن » حتى ذلك الوقت لم يكن قد اهتم فى تربيته إلا بالناحية الموسيقية ، فلما اضطر لمجالسة كثير من أهل الفضل وذوى

الراى بدا جلياً نقص ثقافته وتخلفه عن أقرانه وجلسائه .

وإذن فقد كان « بيتهوفن » شديد الحاجة إلى رفع مستوى ثقافته وتكميل تهذيبه . وهل هناك فرصة أسعد من اتصاله بتلك الأسرة النبيلة ، القويمة التثقيف ، الراقية التهذيب ؟

الشاب بيتهوفن

فى الحق لقد كانت تلك الصلة أسعد العوامل فى تطور حياة « بيتهوفن » وأجدى الظروف عليه بما أكسبته من علم وأدب وتهذيب، وحالته رجلا خيّراً.

كان يسود هذه الأسرة جو لم يتعوده « لودفيج » : حياة هادئة . عيشة راضية ، يجرى كل شىء فيها دون غلظة أو عنف . كل شىء طبيعى . هناءة شاملة . وسعادة كاملة .

ولما كان موت والدة « بيتهوفن » قد أحدث ثغرة فى قلبه فسرعان ما ملأ هذه الثغرة بحب تلك السيدة الفاضلة التى حلت من قلبه محل أمه لما كانت تحبوه به من العطف والحنان ، وحسن الرعاية وحسبانه

ولدا من أولادها ، يقضى معظم أوقاته بينهم فرداً من أفرادها ، وواحداً منها .

هنا بدأت أول دراسات « بيتهوفن » للأدب الألمانى وقراءته مؤلفات « كلوپشتوك » ، و « ليسنج » و « جيلرت » وما كان قد ظهر من نتاج معاصريه الشاعرين المبرزين « جيتا » و « شيللر »

بدأت تتيقظ فى « بيتهوفن » نواحى الخير الكامنة فى نفسه فعرف ، لأول مرة حقوق الإنسان ، واحترام الإنسانية ، وآمن بالرسالة البشرية ، وغير ذلك من الخلال الشريفة التى غاب عنه طيفها فى بيت أبيه .

أشرقت على « بيتهوفن » فى بيت « بروينج » شمس الحياة ، وأرسلت أشعتها الدافئة إلى تلك الزهرة فتفتحت أكمامها وانبعثت منها القوى الطبيعية الطيبة الكامنة فيها التى كان قد حال دون ظهورها سحب الفاقة ، وحجب الضنك ، فأزهرت وأينعت ، وتذوق « بيتهوفن » أول سعادة فى شبابه . وحسب هذا فضلا كبيراً لأسرة « بروينج » على الموسيقى إطلاقاً .

وقام « بيتهوفن » بعد ذلك بإعطاء دروس فى البيانو إلى « لورا » الصغيرة ابنة الأسرة ، وكانت فى ميعة الصباء ، فتاة رشيقة ، أنيقة مرحة ، فأرسل اتصاله بها إلى قلبه أشعة جديدة من نور قدسى أضاء قلبه طوال حياته ، فقد ظلا صديقين حميمين ، يكنّ لها فى قلبه حباً طاهراً وعاطفة بريئة ، وتحفظ هى له أجل آيات التقدير والإعجاب ،

وقد نفذ حبه أيضاً إلى قلبها ، حباً خالصاً امتزج بالهيبة والإجلال .

دام هذا الشعور بينهما ، حتى لقد وجد فى سترة « بيتهوفن » عند وفاته رسالة منها مرسوم فى صدرها زهرة وفيها أبيات من نظمها هذه ترجمتها :

أرجو لك الخير العميـــم وعزة العمر الطويل
وأود لو أسعدتنى بالعطف والظن الجميل
كن للأناة مصاحباً والحلم والرأى الأصيل

صديقتك وتلميذتك
« لورا فوند برويننج »

وفى الحق إن « لورا الصغيرة » لتعتبر من الأحوال الشاذه التى صادفت « بيتهوفن » فى التدريس ، فقد كان يسعده التدريس لها بقدر ما كان يزعجه التدريس لغيرها إطلاقاً ، فإنه كان يمقت التدريس كما كان « موتسارت » يمقته كذلك .

كان يسكن تجاه أسرة « برويننج » النبيل « فون وستفال Westfal » الوزير المفوض لدولة النمسا . وكان « بيتهوفن » يقوم بإعطاء دروس فى الموسيقى لبعض أفراد أسرة هذا الوزير أيضاً ، فكان على الرغم من اقتراب البيتين لا يذهب إلى تلك الدروس إلا مكرهاً بعد أن تحمله النبيلة « برويننج » على الذهاب إليها حملا . كان يساق إلى دروس تلك الأسرة سوقاً ، حتى لقد كان كثيراً ما يذهب إليها مكرهاً ثم

سرعان مايعود قائلا « لقد تعذر عليه اليوم إعطاء الدروس فاعتذر الأسرة من ذلك على أن يضاعف لها الدرس غدا تعويضاً عن درس اليوم » فكانت النبيلة تقول له دائما فى مثل هذه الأحوال : « اليوم سَنح جنونه » .

وكانت تستولى على « بيتهوفن » ، من حين لحين أثارة مما كمن فيه من سوء الخلال ، فكانت تتملكه أحياناً خلة سوء الظن ، وثوران الطبع ، فينفجر لأقل سبب ، ويثور لأتفه الأشياء ، غير آبه بمن حوله ، ولكن الأم ، والأبنة ، كانتا تتوليانه — كلتاهما بأسلوبها — فترققان حاشيته ، وتعيدانه إلى هدوئه فيثوب إلى رشده ، ويدرك خطأه. وعندئذ يقبل عليهما فى خجل شديد وفى حالة نفسية مؤثرة ملتمسا منهما العفو والغفران .

كانت ساعات السمر فى تلك الأسرة مساء من أمتع الساعات « لبيتهوفن » وأسعدها عنده . كان يطلق لنفسه العنان فى العزف بالبيانو فيفنى فى سحر أنغامه ، وحلو ألحانه . يشترك معه فى هذا العزف أحيانا الموسيقار « ريس » فيصاحبه بآلة الكمان .

ومن الفكاهات التى كان « بيتهوفن » يتندر بها ، أن يصور للجماعة فى عزفه بالبيانو صورة أية شخصية يعرضونها عليه ، يصورها بالنغم الموسيقى ، ويلبسها طابعها ، ويعبر عن خلالها ، وأهم نواحيها بالتوقيع حتى لكأنك تراها فى المرآة .

* * *

كان بلاط الأمير المطران « مكسميليان فرانس » تسوده روح طيبة ، وتحوطه هالة من الاحترام والمهابة ، يعنى بالتقاليد الصالحة ، عنايته بالبعد عن التقاليد السيئة التى كانت تغمر مختلف بلاط الإمارات الألمانية الأخرى . كان هذا البلاط خلواً من المحظيات ، اللائى يرغبن فى احتكار السلطة والسلطان ، كما كان خلواً من المنافقين الذين يلغون فى أعراض الناس وشرفهم ، ديدنهم التملق ، وحبك الكيد ، والتلون وما إلى ذلك من الصفات الدنيئة التى تهبط بالرعية وتوردها موارد التلف والبوار .

وما كادت تلوح بوادر الثورة الفرنسية ، حتى كانت أفواج المهاجرين من الفرنسيين يهرعون إلى ألمانيا فى كثرة غمرت إماراتها ، حاملين إليها معهم وفرة من سوء الصفات وعلامات النحس . وقد عرف الأمير مطران مدينة « بون » كيف يصون بلاطه من شر هؤلاء فأبعدهم عنه ، وساعده فى ذلك مقته الهجرة والمهاجرين ، والتنقل بين البلدان إطلاقا . ومن دلائل هذا المقت ماحدث يوم أن قصد إليه النبيل « جراف أرتوا » يزوره ، وبرغم أن الملك « كارل العاشر » هو الذى أبلغ الأمير نبأ الزيارة ، وأوصاه به خيرا ، فإنه تعمد أن يغادر مدينة « بون » ذلك اليوم بعد أن أمر باستقبال النبيل خير استقبال ، وإكرامه غاية الإكرام ، وإمداده بما يحتاجه من مال .

وكان هذا الأمير المطران ، لايشرب الخمر إطلاقا ، فنتج عن ذلك قوة فى شهيته للأكل ، وحبه للطعام ، فبدن وزاد سمنه ولكن

هذا السن لم يمنعه من حبه المفرط للرقص ، وشغفه به ، فلما حضر « فريدريك الأكبر » ملك بروسيا على رأس جيشه زاحفا على فرنسا فى عام ١٧٩٢ وأقيمت له حفلة تكريم فى مدينة « كوبلنز » أظهر هذا الأمير الدينى فى فنون الرقص من البراعة ما أدهش الحاضرين ، وجعلهم يطلقون عليه « القسيس الجنى » .

كانت حفلاته الموسيقية ، الخاصة ، التى يقيمها فى بلاطه مساء ، ويدعو إليها « بيتهوفن » لإحيائها ، من أجلّ الفرص لإظهار عبقريته الموسيقية الفذة إذ كان لا يظهر فى الحفلات العامة أبدا .

وكان عزف « بيتهوفن » بآلة البيانو موضع إعجاب شهود تلك الحفلات ، ومحل دهشتهم ، لا يقتصر على ذلك الأمير وحاشيته فحسب بل يشمل أفذاذ الموسيقيين الذين تتألف منهم فرقة البلاط أمثال الموسيقار « ريس » وكان فريدا فى العزف بالكمان و« ليون هارد » وهو من أكبر الأساتذة العازفين بآلة الفيولنسل ، وغيرهما من فطاحل فرقة الأمير .

* * *

« جود سبرج » إحدى ضواحى مدينة « بون » وتقع تجاه القمة الهائلة للجبال السبعة .

وفى هذه القرية عين المياه المعدنية ، أمر الأمير المطران بإعداد حمامات بها ، تشتمل على بهو فخم للحفلات الموسيقية . وفى ذلك البهو كانت تقام حفلة موسيقية كل يوم خميس طوال أيام الصيف .

كان الطريق من مدينة « بون » إلى قرية « جودسبرج » طريقا ساحرا يمتد على ضفاف الرين . وكان المدخل إلى صالة الحفلات الموسيقية رائعا يدخل السرور إلى قلوب أفراد الفرقة الموسيقية فى اجتيازهم إياه ، وبخاصة « بيتهوفن » فقد كان يتعشق جمال الطبيعة ، ويتأثر بها وتسكن إليها نفسه الجياشة ، لذلك كان هذا المنظر الخلاب يضاعف مهارة أصابعه وسمو روحه فى ابتكار حلو النغمات ، وابتداع سحر الألحان عندما يجلس إلى البيانو يرتجل ألحانه ارتجالا معجزا .

ورغم أن كان « مكسمليليان فرانس » أميرا دينيا ، فإنه لم يغفل الاستمتاع بإحياء الحفلات المقنّعة التى يهيم بها أهل الرين ويشغفون بها شغفا كبيرا .

فى « بوبلسدورف » إحدى ضواحى مدينة « بون » التى ترتبطها بها طريق معبدة جميلة ، على جانبيها الأشجار المنسقة الضخمة الواقعة فى سفح الجبل ، فى هذا المنظر الذى يأخذ باللب ، يقوم قصر أثرى لهذه الإمارة .

وفى أحد أبهاء القصر الفسيحة المصنوعة من المرمر ، كانت تقام لمناسبة الحفلات المقنّعة حفلة راقصة تسمى « رقص الفرسان »

وإذ كان النبيل « فالدشتاين » ذا مهارة فائقة فى إعداد مثل هذه الحفلات فقد أعد مناظر هذا الرقص إعدادا رائعا بمساعدة أستاذ كبير لهذا الفن فى مدينة « آخن » ( اكس لاشابل ) . وقد كلف صديقه « لودفيج » القيام بتأليف الموسيقى المناسبة لهذا الحفل .

بهو فسيح الأرجاء عالى البناء صفت به أشجار من النخيل عالية تمتد حتى السقف وتسطع فى نواحيه أضواء تنعكس على منشورات ضوئية من البللور لاحصر لها . وقد ظهر فى نهاية البهو رسم بديع لمدخل ميناء « نابولى » .

يفتتح هذا الحفل بمسير مقنّع فى شكل استعراض ، مصحوب بغناء ومُلح ، يمر بالأمير وقد اعتلى منصة مرتفعة تشرف على أماكن البهو

ثم يظهر صيادو مدينة « نابولى » بمجاديفهم يحملون شباكهم على ظهورهم ، و يتغنون بأغانى شعبية على صوت آلات المندولين . ثم تقبل نساء « نابولى » يحملن الأزاهير ، والفاكهة ، خلفهن عربة أمير « الكرنفال » تحوط به حاشيته وأتباعه ، وهو فى طريقه من إيطاليا إلى بلاد الرين ، ولم يترك أمير « الكرنفال » شيئاً إلا استصحبه معه فى معيته ، حتى لترى « جاموسة » ضخمة ، هى صناعية ،ولكنها مطابقة جداً للطبيعة ، تجر عربة ذات عجلتين محملة من كل مالذ وطاب .

ثم يظهر وسط الحفل مهرّج إيطالى فى صورة طبيب روحانى يعرض على الناس أدويته وطرق علاجه . ثم يظهر معه اثنان من الأمساخ ( المضحكين ) يأتيان من الإشارات وتحريك عضلات الوجه مايضحك و يثير فى القوم السرور والانشراح . ثم يخرج رجلان يضرب أحدهما على طبل كبير ضخم ، والثانى يعزف بالنفير .

يعقب كل ذلك استعراض مقنّع لجماهير كبيرة تمثل شعوب الأرض قاطبة فى أزيائها المختلفة .

كل هذا المهرجان يمر بالأمير فى جلسته ، وتتمهل كل طائفة عند مرورها به حتى لتقف لتحيته ، فإذا ما انتهى هذا العرض صعد أمير « الكرنفال » إلى منصة عالية يلقى من فوقها خطاباً مضحكا ، فإذا انتهى من خطابه دوّت الأبواق بالعزف ، وينتشر فى الهواء أريج عطرى ، يظهر فيه اثنان وثلاثون فارساً وسيدات الشرف فى شكل أزواج ، يمثلون الطبقات المختلفة لأشراف سكان بلاد الرين ، وقد ارتدوا ملابس العصور الوسطى المطرزة بالذهب الوهاج ، والفضة والأحجار الكريمة ، أزواج من الشباب فى جمال رائع يأخذ بألباب الناس .

وأروع من هذا كله ، ما يسمع حينئذ من ألحان ساحرة تنبعث من فرقة الأمير فى مارش من تأليف الشاب « بيتهوفن » يسير عليه ركب الفرسان ، وسيدات الشرف ، فى طريقهم إلى الأمير لتقديم فروض الطاعة .

إن قوة انسجام هذه الألحان ، وسحر أنغامها ليبعثان الفرح والسرور فى قلوب الجميع بل لقد أحس الأمير نفسه كأن الألحان أصابته بهزة عنيفة فانحنى يستمع إليها . ثم وقف يحيى أزواج الفرسان .

ثم تنساب النغمات فتملأ الجو سحراً وروعة ، ويتهيأ الحشد المقنّع للرقص . ثم تظهر جوقة الملحنين فيتغنون بأغانى شعبية ، حربية ، غزلية ، وغيرها من مختلف أنواع الأهازيج والأناشيد .

موسيقى رائعة ، تحبس أنفاس المجتمعين ، وتستولى على مشاعرهم تلك الألحان جميعها هى ألحان الشاب « بيتهوفن » موضع الدهشة والعجب .

# آخر العهد بمدينة بون

جاور « بيتهوفن » العشرين من سنى حياته ، فأصبحت تتغلب عليه صفات الجد ، والصمت ، والتفكير العميق ، وصار منظره ينم عن شخصية جادة ، وخلق صلب . ومصدر هذه الصفات ، ولا ريب ، نشأته فى طفولته .

كانت آلة « الأرغن » أحب الآلات الموسيقية إليه ، وأقربها ، يجد فيها قوة قاهرة تنجذب إليها نفسه ، فكان كثيراً ما يقصد فى المساء إلى الكنيسة منفرداً ، فإذا أحس الوحدة والسكون إلى النفس أقبل على تلك الآلة الضخمة يستودعها ألواناً من مبتكرات وجدانه العبقرى . كانت أصابعه تتنقل فوق مفاتيحها فتخرج منها السحر أنغاماً وألحاناً . أصوات قوية ضخمة رهيبة ، تنبعث من روحه فتملأ أركان المكان بالمتناقضين — الألم والسرور — مما يترجم عن مشاعر تلك النفس ، ومايتسلط عليها من مختلف النزعات . أنغام حلوة ، فى انسجام رائع ، تمثل ثورة العواطف التى يختزنها قلب الفنان ، وألحان ملائكية يصل صداها إلى الطريق فتوقف المارة حاشدين فى جموع متراصة تتهامس فيما بينها « هذا هو الشاب بيتهوفن » .

* * *

وفى ذات يوم ، خرج « بيتهوفن » ونفر من صحبه للنزهة فى

« جودسبرج » فعلموا أن كنيسة فى دير قريب قد أعيد بناؤها ، وجىء لها بآلة أرغن جديدة .

فصعدوا جميعاً إلى الدير وأقبل « بيتهوفن » على آلة الأرغن يسائل مفاتيحها حلو النغم . كان بعض العمال يزاولون بعض أعمال التنظيف فى الكنيسة . وانسجم « بيتهوفن » فى موسيقاه ، وفنى فيها حتى انبعث من الآلة سحر . وسرعان ما سقطت من أيدى العمال مكانسهم وانفرط ما كان بها من أدوات ، ووقفوا جامدين ، مأخوذين بسحر النغم الذى يسمعون ، وقد تسلط عليهم فلم يستطيعوا منه فكاكا . وما كان يدور بخلد أحدهم أن تلك الآلة يمكن أن ينبعث منها مثل هذا السحر .

حل ديسمبر سنة ١٧٩٠ ، فعاد الى مدينة « بون » أحد أبنائها البررة بعد طول غيبته عنها ، هذا الابن البار هو أحد أفراد أسرة « سالومون » وكانت مجاورة لأسرة « بيتهوفن » . كان نابغا فى العزف بآلة الكمان ، وهاجر يسعى لعله يصيب فى العالم حظا . فألقى به التسيار فى مدينة « لندن » واستقر يعمل فى فرقها الموسيقية الكبرى . كان عائدا إلى لندن فانتهز فرصة مروره بمدينة « فينا » وعرج يزور مسقط رأسه مدينة «بون» . لم يكن « سالومون » فى تلك الرحلة وحيداً ، بل لقد اصطحب رجلا كهلا يماشى العقد الخامس من عمره لا ينم مظهره على شىء غير عادى . إنما كان بشوش الوجه . خفيف الروح مرحاً .

سرى التهامس فى فرقة البلاط بمدينة « بون » فقال قائلها :

— أتدرى أحدث الأنباء ؟ إن الموسيقار « جوزيف هايدن » هنا . لقد صحبه « سالومون » من « فينا » ليقيم حفلات بلندن .

صدق المتهامسون . فقد كان حديثهم صحيحا . فإن الموسيقار الخالد « جوزيف هايدن » كان حقيقة فى مدينة « بون » وقتئذ . ودعاه

جوزيف هايدن

الأمير المطران إلى بلاطه ليسمع من أعضاء فرقته الموسيقية عزف بعض مؤلفاته تكريما له .

فلما فرغ الأعضاء من عزفهم عرّفهم الأمير إلى الموسيقار الخالد فأثنى عليهم جميعا ثناءا مستطابا ، وحمد لهم أن أدوا المقطوعات خير

مايمكن أن يكون الأداء ، وبعد : فمن يكون هذا الذى كان يعزف بالأرغن عزفا تنقطع دونه الكفايات ؟ لقد كان عزفه ساحرا حقا .

فأجابه الأمير المطران :

— هو فتى يدعى « بيتهوفن » . شاب سناً ، شيخ فناً . أو إن شئت : عبقرية موسيقية نادرة .

وسر « بيتهوفن » أن تسمع أذناه هذا الثناء من فم الموسيقار الخالد « هايدن » يزكيه ذلك الإطراء من أميره المطران .

وكانت فترة قصيرة استأذن بعدها « هايدن » لاضطراره لاستئناف السفر فى ذلك اليوم . لكنه وعد الفنان الشاب أن يلتقى به مرة أخرى .

تركت تلك الزيارة فى نفس « بيتهوفن » أثراً كبيرا وأصبحت « بون » فى نظره حيزاً محدودا يضيق بآماله . إنه يحس فى أعماق نفسه شيئا أكبر مدى مما يحوط به .

ويشعر الآن برغبة فى الخروج على ما ألفه واعتاده من قبل . يريد أن يستكمل ثقافته الموسيقية وأن ينقطع إلى دراستها . ولكنه يرى المستقبل فى تلك الناحية مظلما ، إذ تعوزه الموارد التى يمكنه أن يعتمد عليها . إنه يريد أن يجوّد علم صياغة الألحان و « الكنتراپوا » وأن يتعمق فى دراستهما تعمقا يرتفع به إلى صفوف المثاليين ، ويسمو به إلى حيث « هايدن » و « موتسارت » . وكانا كوكبين يسطعان فى سماء الفن .

* * *

جاء خريف ١٧٩١ فقام الأمير المطران برحلة استغرقت بضعة أسابيع .

وكانت فرصة رأتها الفرقة الموسيقية سانحة لتقوم فيها برحلة قصيرة ، فاستقلت يختا من يخوت البلاط . أما « بيتهوفن » فقد وجد فى تلك الرحلة فرصة مواتية درس فيها ألحان أوبرا « دون جوان » لموتسارت وكان قد أعارها له صديقه النبيل « فالدشتاين » .

ولما وصل الركب مدينة «أشّافنبورج» قصد «بيتهوفن» وصديقه « ريس » إلى الموسيقار « آبت ستيركل » وكان من أشهر العازفين بآلة البيانو المعروفين بصوغ الألحان .

استقبلهما « آبت » خير استقبال ، وكان لايجهل اسم «بيتهوفن» فقد عرفه جيدا من مؤلفاته فى آلة البيانو .

جلس « آبت » إلى آلة البيانو ، بناء على رغبة ضيفيه ، وأخذ يعزف ألحانا من أوبرات « موتسارت » . هنا لك سمع « بيتهوفن » لأول مرة عازفاً ماهرا بتلك الآلة ، شاء وتفوق عليه .

كان « آبت » ينهج فى عزفه نهجاً خاصا ، جعل له طابعا يمتاز به . وكان فى عزفه رقيقا ، وديعاً ، ليّن الحركة حتى لتتمثل أنه إنما يحرك على المفاتيح أنامل سيدة ، كل ذلك فى مهارة تدهش السامع ، وتأخذ بلبه .

فرغ « آبت » من عزفه فأقبل عليه ضيفاه يطريانه ، ويثنيان عليه . ثم طلب المضيف إلى « بيتهوفن » أن يجلس الى البيانو ويسمعه

بدوره شيئاً من تواليفه . وأراد الفنان الشاب ، تواضعاً منه ، ألا يعزف بعد هذا الموسيقار العظيم ، فاعتذر ، ولـكن « آبت » كان ماكر فقد عرف كيف يثير « بيتهوفن » فقال :

— يستطيع المرء أن يكون مؤلفاً مجيدا ، وأن يضع لآلة البيانو أصعب المقطوعات ؛ ولـكنه قد يعجز هو نفسه عن عزفها ، والتغلب على مافيها من الصعوبات .

أثار ذلك القول « بيتهوفن » فأجاب فى سرعة وحماس :

— هل لديك مقطوعتى « تعالى ياحبيبتى » ؟

— بلا ريب

كانت هذه المقطوعة أصعب مقطوعة كتبها « بيتهوفن » لآلة البيانو . وقداغتبط « آبت » بنجاحه فى إثارة « بيتهوفن » وحمله على العزف . ولـكنه لم يستطع أن يقدم له تلك المقطوعة التى طلبها . فاعتذر اليه بأنه لايعرف إن كان قد أعارها أحدا أو هى فى مكان مجهول .

— هذا غير مهم ، سأعزفها من ذاكرتى ، قدر ما أستطيع

أجاب « بيتهوفن » بهذا القول وقد جلس الى البيانو ، وأخذ يعزف مقطوعته من الذاكرة .

لم يدهش « آبت » وحده لعزف « بيتهوفن » بل لقـد دهش « ريس » أيضا ، برغم أن عزف صديقه لم يكن جديدا عليه . إنما كانت دهشتهما من أن « بيتهوفن » لم يعزف مقطوعته الموضوعة

فحسب ، بل زاد عليها ارتجالا من تآليفه كل معجز مبتكر ، وأضاف إليها من الصعوبات الفنية فى الأداء أضعاف ما كانت تحتوى عليه أولا ثم هو بعد ذلك ينهج فى عزفه نهج « آبت » فيأخذ عنه طريقته فى العزف ويسلك أسلوبه غاية فى الدقة والروعة ، برغم انشغاله بالتأليف أثناء العزف .

لم يسع « آبت » تلقاء هذا الإعجاز إلا أن يضم الفنان الشاب إلى صدره ، وأن يعترف له أنه بزه وشآه .

* * *

طالع الناس فى الصحف أخبار النجاح العظيم الذى أصابه « هايدن » فى لندن ، وذاع نبأ هذا النجاح فى أوربا قاطبة ، فعمت شهرة ذلك الفنان ، وحققت تخليد ذكره ، وذلك بأن المؤلفات التى ظهرت له فى بلاد الإنجليز فى أثناء تلك الرحلة قد بزت جميع ماسبقها من تآليفه ، وما تقدمها من مبتكر تصانيفه .

وفى يوليه سنة ١٧٩٢ عاج ذلك الموسيقار الشيخ بمدينة « بون » ثانية فى طريق عودته إلى « فينا » .

كان الأمير المطران متغيبا عن المدينة وقتئذ ، فقام أفراد الفرقة الموسيقية نيابة عن أميرهم بتكريم هذا الموسيقار النابغ ودعوه إلى حفلة تكريم فى « جودسبرج » الجميلة .

قدم اليه « بيتهوفن » مقطوعة من تأليفه وضعها حديثا فأخذ « هايدن » فى الفحص عنها ، وكان كلما تقدم به الفحص تتزايد أسارير وجهه

انبساطاً ، ويفيض وجهه سروراً و بشرا ، وما كاد يفرغ منها حتى أطرى عبقرية الفنان الشاب ، معجبا باستعداده العظيم ، وقوة نتاجه .

ألهبت زيارة هذا الموسيقار العظيم لمدينة « بون » فى قلب « بيتهوفن » نار الرغبة فى الرحيل إلى « فينا » وأشعلت فيه لهيب الاستزادة من دراسته الموسيقية حتى يستكملها .

لم ينته العام حتى تحققت آمال الفنان الشاب ، فقد رأى الأمير المطران أن يبعث به إلى مدينة « فينا » ليتتلمذ فيها على « هايدن » . وقد أمر أن تصرف له وظيفته بصفة كونه عازفا بالأرغن ، شأنه فى رحلته الأولى

وكان الأمير يرمى بهذا إلى أنه متى أتم « بيتهوفن » دراسته بفينا ، وأصبح فى فنه أستاذاً لا يشق له غبار أعاده إلى « بون » رئيساً لفرقة البلاط

كان « بيتهوفن » قد بلغ الثانية والعشرين من عمره . ولقد كتب اليه صديقه النبيل « فالدشتاين » كلمة وداع جاء فيها :

« إنك لجدك المتواصل ، وكدك المستمر ، ستحرز روح « موتسارت » وأنامل « هايدن » .

أما أسرة « بيتهوفن » فقد أصبحت فى غير حاجة إلى عوله إياها فى أثناء غيابه ، ذلك بأن أخاه الأصغر « كارل » أصبح عازفاً مجيدا بالبيانو ، وكان يتكسب من إعطاء الدروس ما يقوم بمعيشته ، أما شقيقه « يوهان » فكان تلميذا يتمرن بصيدلية البلاط ويتقاضى أجرا على ذلك يقوم بنفقته ، وكان الوالد لا يزال يستولى على معاشه من الأمير

وفى بداية شهر نوفمبر بدأ « بيتهوفن » القيام برحلته إلى فينا ،

وكان أقسى ما أحزنه فراقه لأسرة « برو ينتج » التى ألف الحياة معها وأصبح يعد نفسه فرداً من أفرادها .

بل لقد كان فراقه لمدينة « بون » فراقا أبديا ، اذ كتب عليه ألا يرى هذا الوطن بعد ذلك أبدا ، فكان الفراق وداعا أبدياً لتلك المدينة ولوالده أيضا ، فلقد مات الأب فى الشهر التالى لرحلته واستجاب نداء ربه فى ١٨ ديسمبر سنة ١٧٩٢

# النور والظلام

وجد « بيتهوفن » فى هذه الرحلة بغيته ، وتحققت له فيها أمنيته ، فما كاد يصل إلى « فينا » حتى استقر مقامه فيها وتسامح له الدهر وسالمته الأيام ، وأصبح فى لَيان من العيش ، ودعة من الحياة ، واستقبلته فى « فينا » أيام ذهبية حقاً ، مهدت له السبيل إلى تحقيق غاياته ، من الحياة الفنيه السامية والحياة الاجتماعية الراقية ، فوق ما كان يتمنى .

إن التواضى الكريمة التى زوده بها أميره المطران ، فتحت أمامه فى « فينا » أبواب قصور الأشراف ، والنبلاء وعلية القوم ، ومهدت له طريق الوصول اليها ، وسرعة الاندماج فيها .

كان أول من فتح بابه لهذا الفنان من هؤلاء النبلاء هو العالم الكبير « فان سويتن » وكان فى بداية العقد السادس من عمره .

كان صديقاً للموسيقار « موتسارت » . وكان على اتصال وثيق بالموسيقار « هايدن » وهو الذى نظم له قطعتيه الدينيتين الخالدتين : « الخلق » و « الفصول » ، وهما من نوع ألحان « الأوراتوريو » بعد أن نقلهما من اللغة الانجليزية وتصرف فيهما .

كان هذا النبيل مشغوفاً بالموسيقى ، ولوعاً بها ، مما جعل له مركزاً خاصا فى الأوساط الراقية فى « فينا » . وهو عالم واسع الخبرة . كانت

له مكتبة قيمة جعل منها « أكاديمية » حقيقية صارت المرجع الوحيد الذى يقصد إليه الموسيقيون فى كل ما يمكن أن يحتاجوا إليـــه من مقطوعات موسيقية .

سمع هذا النبيل « بيتهوفن » فراعه حسن توقيعه على آلة البيانو ، ولمس فيه نبوغاً خارقاً ، وعبقرية جاوزت المدى فقربه اليه . وكثيراً ما كان يقيم فى بيته حفلات موسيقية يحييها هذا الفنان الشاب ، فإذا ما انتهت الحفـــلة ، وانصرف المدعوون ، استبقى صاحب الدار ذلك الفنان ، ليشبع نهمته بالعزف له وحده مقطوعات خاصة ، سيما من الموسيقار « باخ » .

وكثيراً ما أرخى الليل فى تلك الحفلات رُواقه على « بيتهوفن » معانقه ، إلا بمشقة ، عن الذهاب إلى منزله فأعد النبيل له فى بيته غرفة خاصة يأوى اليها فى أى وقت شاء ، فلا يضطر للعودة إلى منزله إذا ما جنَّ عليه الليل .

وكان فى الصـــدارة من أنصار « بيتهوفن » ومعضديه الأمير « كارل ليشنوفسكى » وهو من أسرة شريفة ، عريقة فى المجد من أصل بوهيمى . وكان هذا صديقاً لموتسارت أيضاً ، وقد تتلمذ عليـــه وقتاً غير قصير .

وجدت الموسيقى فى هذا الأمير النبيل نصيرا مظاهراً وعضداً قوياً ، وعاهلا فى أدق معناه . ولم تـــكن زوجه بأقل منه فى هذه السبيل .

هى النبيلة « تون » من أسرة شريفة ، عريقة فى المجد . كانت تهيم بالموسيقى وتتدله فيها ، وتناصر أهلها مناصرة يضيق عنهـــا الوصف . وكانت ، كزوجها ، تجيد العزف بالبيانو . لا يبزها فيـــه غير النبيل « موريس ليشنوفسكى » شقيق زوجها ، وكان أيضاً تلميذا لموتسارت وظل طوال حياته من أصدق أصدقاء « بيتهوفن » .

لم يمض على وصول « بيتهوفن » إلى فينا وقت كبير حتى توطدت صلته بأسرة الأمير « كارل ليشنوفسكى » وزوجته فانتقل للإقامة فى قصرهما .

كان يقام فى هذا القصر ظهر كل يوم خميس حفلة موسيقية يشترك فيها الشخصيات البارزة من الموسيقيين الموجودين بفينا ، والطبقه الراقية من عشاق هذا الفن .

وكانت هذه الحفلات من أسعد الفرص لظهور عبقرية « بيتهوفن » فى مبتكراته ، بل لقد كان ابتداعه فيها هو المستودع الفنى الذى اغترف منه « بيتهوفن » نفسه فيما بعد .

كان كل شىء متوافرا فى قصر ذلك الأمير ، ولـــكن قد يكون فيما يحسبه النـــاس نعمة وهناءه تتغيص « لبيتهوفن » ينأى به عن المتعة والراحة .

كانت الساعة الرابعة مساء موعدا محددا للطعام ، فكان « بيتهوفن »

يكره ذلك لأنه يقيد حريته ، ويعوق حركته حتى لقد ناجى نفسه فى ذلك يقول :

— ويلى . أتحتم علىّ التقاليد أن أحضر يومياً فى الساعة الرابعة !! أغلال أتقيد بها دائماً فى سبيل الحرص على هذا الموعد . ويتحتم علىّ أن أغير ملابسى ، وأن أحلق لحيتى . اللهم إنى لا أستطيع على ذلك صبرا.

إذن فقد بدأ « بيتهوفن » يستخف بهذه التقاليد ويهزأ بها . وكثر تخلفه عن موعد الطعام مفضلا عليه أن يتناوله فى الخارج بأحد المطاعم المتواضعة .

وعجيب أن يرى الإنسان فى شخصية « بيتهوفن » ناحية عجيبة ، تحمله على إحداث المتناقضات فى تصرفاته .

فقد حدث مرة أن استدعى الأمير أحد خدمه ووجه إليه القول فى شدة:

— اذا سمعت الجرس يدق لاستدعائك ، وتبينت أن السيد « بيتهوفن » يطلبك ، ثم دق جرس آخر فى نفس الوقت فى طلبك ، فلتقدمه عنى ، ولتذهب إليه أولا لتنفيذ أوامره .

بدل أن يحمد « بيتهوفن » للأمير هذه العناية ، ويشكر له هذه الرعاية ، ساءته منه هذه العبارة فاستحضر له خادماً خاصاً يقوم على خدمته فى القصر .

وأضرب عن ركوب خيل الأمير فاشترى له جواداً اختص به ، ولكنه سرعان ما سئم ركوب الخيل فنسى الجواد ولم يذكره حتى جاءه

من يقوم بتوريد علفه يطالبه بسداد مبلغ كبير ، وعندئذ تذكر « بيتهوفن » جواده وقد أغضبه بهظ النفقات .

وكان اذا أقبل الصيف ، نزح « بيتهوفن » الى الريف فأقام فى مسكن مستقل بعيد عن قيود التقاليد .

كانت هذه الحياة الريفية أكثر موافقة لطبيعة « بيتهوفن » وكانت الطبيعة — كما يقول عنه أحد معاصريه — غذاءه ، يجد فيها طمأنينته واستقرار نفسه ، وكان بيتهوفن يقول :

« ما أسعدنى ، انى أسير من حين الى حين ، وسط هذه الأحراش ، والغابات ، والأشجار . ليس فى الأرض إنسان يحب الريف حبى له »

فاذا أقبل الخريف عاد « بيتهوفن » الى قصر الأمير « ليشنوفسكى »

عاش « بيتهوفن » على هذا المنوال فى قصر الأمير عدة سنين . وكان الأمير وزوجه يعاملانه غاية فى الرقة وحسن الرعاية ، وغاية فى التسامح إذا خرج على التقاليد المرعية ، والعادات المصطلح عليها التى ترتبط بها تلك الأسرة ؛ بل لقد بلغ من تسامحهما أن كانا يرضيان عن تصرفاته ، وبخاصة الأميرة ، فإنها كانت ترى فى طباع « بيتهوفن » شذوذا خاصاً به لا تجده فى غيره فكانت تعجب بهذه الناحية ، وتدافع عنها أمام زوجها ، فكان حبهما له عظيما ، ورعايتهما له منقطعة النظير .

حتى ليصف ذلك « بيتهوفن » نفسه فيما بعد فيقول :

«لقد كانا يغمرانى بحب أبوى ، سيما الأميرة ، فما كان ينقصها إلا أن تضعنى تحت ناقوس من الزجاج حتى لا يصيبنى سوء ، ولا يمسنى نسيم »

وكانت شقيقة الأمير « ليشنوفسكى » زوجة للأمير « أندريا راسيوموفسكى » الوزير المفوض للروسيا فى فينا وكان هذا البيت من البيوتات التى فتحت أبوابها أيضا لبيتهوفن مرحبة به ، ومكرمة له

كان الأمير « راسيوموفسكى » ذا قوام معتدل، ومظهر خلاب، مجيدا للعزف بآلة الكمان ، تقطع لخدمته فرقة رباعية من أبرع العازفين فى ذلك الوقت . ولقد ذاعت شهرتها حتى كان الانتساب اليها يعد شرفاً عظيما ، وكان العمل فيها شهادة فنية محترمة ، بل لقد كان من ينضم اليها من الموسيقيين يضمن لاسمه الخلود فى صفحة الفنانين

كانت كل رباعية يؤلفها « بيتهوفن » تجربها أولا تلك الفرقة فتؤديها أدق مايكون أداء ، وأصدق مايكون فنا يسكن المؤلف اليه ويطمئن له . وكان أفراد تلك الفرقة يستجيبون لجميع رغبات « بيتهوفن » وينفذون تعليماته ويحتملون فى ذلك أحياناً ثوران غضبه برغم مابينهم من فوارق السن ، فهو الفنان الشاب ، وجميعهم من شيوخ الموسيقيين

***

ولعل القارىء يتطلع الى معرفة ماوصل اليه بيتهوفن من تحقيق الغرض الأساسى الذى وفد من أجله الى فينا وهو استكمال ثقافته الموسيقية على أستاذه الموسيقار « هايدن »

لم يتوان « بيتهوفن » فى تحصيل دروسه على أستاذه بل كان فى هذا التحصيل التلميذ النابه ، والطالب الحريص المستجمع ، وكان موضع

رضاء أستاذه ، ومحل تقديره و إعجابه . ولعل فيما تورده من رسالة بعث بها « هايدن » الى مدينة « بون » ماينطق بهذا الإعجاب ، قال :

— وسأضطر قريباً إلى اعطائه أوبرا كبيرة . فإذا استطاع ابتداع هذا النوع من التأليف ، كان لزاما أن أكف عن التلحين إطلاقا ، إذ أن كفايتى تختفى وقتئذ أمام تلك العبقرية الجبارة » .

هذا ، ولا ريب ، إطراء بالغ ، ينضوى فى ثناياه أكرم معانى التقدير ، سجله أكبر موسيقار فى « فينا » اذ ذاك غير منازع . لكن الشاب « بيتهوفن » فى الحق ، لم يكتسب كثيرا من علوم هذا الموسيقار الشيخ . ذلك بأن طريقة تدريسه كانت تجرى على نظام « المدرسة القديمة » التى لم تتفق وروح « بيتهوفن » الوثابة وعبقريته الفتية ، فكان يجد فى تلك الدروس مللا مسئما رغم مبالغة « هايدن » فى حسن معاملته ، وجميل رعايته . ولما كان سوء الظن متاصلا فى نفسه فقد كان يعتقد أن «هايدن» إنما كان يضن عليه بعلمه ، و يبخل عليه بفنه .

أيد ذلك الظن ماحدث من أن « بيتهوفن » ، وكان عائداً يوما من دروسه يتأبط كراسته ، إذ قابله الموسيقار «شنك Schenk » — وكانت مسرحيته الغنائية « حلاق القرية » قد أذاعت صيته ونشرت ذكره — فاطلع على كراسة « بيتهوفن » ووجه نظره الى كثير من الأخطاء زعم أن « هايدن » أغفل تصحيحها وفيها مخالفة لأصول الفن وقواعد الموسيقى .

— من السهل على عظماء الرجال أن يمروا على الخطأ فلا يلحظوه . وليس من مستلزمات الرجل العالم أن يجيد فن التدريس . فانظر هنا . هذا خطأ . . ثم هذا . . يخالف أصول الفن . . وهذا أيضا . .

— ماذا ؟ أيهملنى « هايدن » ولا يهتم بتصحيح أخطائى ؟ إذن ، فماذا أرجو من ذهابى إليه إذا كنت لا أتعلم منه شيئا ؟

وصار « بيتهوفن » من ذلك اليوم يذهب أولا بما يكتبه الى لموسيقار « شنك » لتصحيحه ، ثم يعيد كتابته ثانيا حتى لايلحظ أستاذه « هايدن » خط المصحح .

فلما كان يناير سنة ١٧٩٣ رحل « هايدن » إلى « لندن » فوجد « بيتهوفن » فرصة سانحة للتخلص منه ، وانتقل فتتلمذ على الموسيقار « شنك » ثم ترك « شنك » وتتلمذ على الموسيقار « البرشتسبرجر Albrechtsberger » ثم « ساليرى Salieri » الذى لقنه الانسجام الصوتى فى توزيع أصوات الغناء . وهكذا أخذ يتنقل من أستاذ لآخر حتى تمت له دراسة علم صوغ الألحان اثنتى عشرة مرة

ولم يغفل « بيتهوفن » دراسة صناعة بعض الآلات الموسيقية ومعرفة تركيبها ، وبخاصة أسرة الكمان ، والنفير ، والكلارنيت .

* * *

كان لاتصال « بيتهوفن » ببيوت الأمراء ، والأشراف ، واندماجه فى تلك الأوساط الراقية فضل ذيوع صيته فى أرجاء « فينا » وانتشار شهرته بصفة كونه أكبر عازف بالبيانو ، حتى لقد أصبح ينافس فى ذلك

أساطين العازفين بهذه الآلة ، وأكبر المبرزين فيها وقتئذ .

وكان من أكبر عوامل نجاحه ، وأسباب تفوقه على منافسيه أنه كان فى عزفه الفنان المعتد بنفسه ، الواثق من قدرته .

ولقد تزايدت تلك المنافسة حتى انقلبت حسدا وبغضاء ، وعلى الأخص عند ما علم المنافسون أن هذا الفنان الشاب يعتزم الإقامة والتوطن فى « فينا » .

وفى الحق لم يكن ينازع « بيتهوفن » فى العزف بالبيانو فى كل « فينا » غير اثنين من أمهر العازفين ، هما : « يوهان نيپوموك هومل Johann Nepomuk Hummel » الذى ذاعت شهرته منذ حداثته ، ورحل إلى مختلف الممالك ، ولكنه ، وقد تفرغ الآن للتأليف ، فقد ندر ظهوره فى الحفلات العامة عازفا بالبيانو . والثانى هو الموسيقار « فولفل Wölffel » من مدينة « زالتسبورج » وطن « موتسارت » وكان هذا الفنان فى مهارته يضارع « بيتهوفن »

والواقع أن طبيعة خلق أصابع « بيتهوفن » لم تكن بالتى تصلح لتلك المهارة الفائقة فى العزف بالبيانو ، ذلك بأنها كانت ضخمة تظهر كأنها متساوية الطول ، وكانت الأصبع الخنصر منها مساوية لبقية الأصابع حتى ليخيل للناظر إليها أنها مخروطة خرطا .

إنما كان يرجع تفوق «بيتهوفن» إلى ابتكاراته الباهرة وارتجالاته الرائعة التى كانت تسحر سامعيه ، وتأخذ بألبابهم فينجذبون إليه . كان قديرا بحيث يستطيع أن يتنقل فى الألحان من أيسرها إلى أعسرها

ومن أسهلها إلى أشدها تعقيدا ، فكان يتنقل من مقام إلى مقام ، ومن ضرب إلى ضرب . كما يتنقل فى تعابيره من عاطفة إلى عاطفة ، فكان يخرج من السرور إلى الحزن ومن المرح إلى الترح ، ثم الى التنـدر والفكاهة ، كل ذلك فى نغم حلو ، وألحان ساحرة . كل شىء جديد مبتكر ، يحمل طابع الفنان ، وشخصيته .

وكان «بيتهوفن» كثير التأثر فى أثناء عزفه ، يبدو تأثره جليا فى أعضاء جسمه ، فكانت تتحرك عضلات وجهه وتنتفخ شرايينه ، وتجحظ عيناه ، وترتعد شفتاه . كان يظهر كأنه الساحر تسلطت عليه الأرواح ، واحتواه الجن .

* * *

وشاء القدر الضحوك أن يعبس ويكهر ، وانقلب الضياء المنير حلكة وظلاما ، وحالت السعادة الهنيئة شقاء و بؤسا .

فى عام ١٧٩٤ أصاب مدينة « بون » مسقط رأس « بيتهوفن » داهية دهياء ، فقد استولى الفرنسيون عليها وطردوا أميرها المطران « مكسمليان فرانس » .

لم يفقد بيتهوفن بذلك راتبه بصفة كونه عازفا بالأرغن فى البلاط فحسب ، بل فقد بذلك وظيفته العالية الثابتة التى كان يعد نفسه لها ، والتى كان سيتقلدها بعد عودته إلى مدينة « بون » .

إذن فقد اضطر « بيتهوفن » الى الظهور فى الحفلات العامة يحييها ليتكسب منها .

رحل إلى « براج » وعزف فيها مقطوعات من تآليفه وأخرى لموتسارت ، فكان موضع الدهشة والعجب . وكذلك كان فى مدينة « ليبزج » .

ثم رحل إلى « برلين » حيث عزف فيها أمام الملك « فريدريك الأكبر » فأتحفه ببدرة من المال . وفى هذه المدينة تقابل مع الموسيقار « هيمل Himmel » وكان واسع السمعة ، بعيد الصيت ، خلدت ذكره مؤلفاته الموسيقية من الأوبرات ، والأغانى التى وفق فيها كل التوفيق .

طلب « هيمل » إلى « بيتهوفن » أن يرتجل على البيانو بعض الألحان ، فلبى طلبه ، ولما انتهى تقدم « هيمل » بدوره الى البيانو يرتجل عليه مختلف الألحان ، ويبتدع ماوسعه من حلو النغم ، و « بيتهوفن » فى ذلك ينتظر و ينتظر و يعتقدا أن « هيمل » لايزال يمهد لموضوع لم يدخل فيه بعد ، وطال انتظاره حتى ضاق ذرعا فقال :

— متى تبتدىء إذن ؟

وإذ كان « هيمل » قد انتهى من عزفه فقد ساءته هذه الملاحظة وأحس امتهانا يصيبه فى أعماق نفسه ، فصار من ذلك اليوم عدواً من ألد أعداء « بيتهوفن » .

وأعجب فردريك الأكبر بعزف « بيتهوفن » فأبدى رغبته فى استبقائه فى بلاطه ببرلين ولكن « بيتهوفن » اعتذر . ولقد روى تلميذه « شرنى » أن « بيتهوفن » أشار الى ذلك فى حديث له فقال : « هؤلاء أطفال مدللون

تبكيهم شدة تأثرهم بالموسيقى بدلا من أن تستفزهم قوتها » . ذلك بأن « بيتهوفن » كان يعتقد أن مهمة الموسيقى ، أن توقد النار فى نفوس الرجال

وعاد « بيتهوفن » من رحلاته الى « فينا » ولم تنل من نفسه رضاء . وفى عام ١٧٩٥ كتب ثلاث ثلاثيات ، للبيانو ، والكمان والفيولنسل ، فبلغ فيها الذروة ، وأصبح بعدها فى عداد الطبقة الأولى من المؤلفين ، وقد نشرها باسم عمله الأول ( Opus 1 ) متنازلا فى ذلك عن كل ماسبق له من الألحان فى الماضى ناظراً إليها كأن لم تكن .

عزفت هذه الثلاثيات فى قصر الأمير « ليشنوفسكى » وكان المدعوون نخبة من فطاحل الفنانين وعلية القوم ممن علت مدارکهم الموسيقية ، وسمت ثقافتهم فيها . وكان « هايدن » حاضراً كذلك .

أعجب « هايدن » بهذه الثلاثيات غاية الإعجاب ، وامتدحها امتداحا فائقا ، ولكنه أظهر قلة ارتياحه لثالثتها ، ونصح لبيتهوفن ألا ينشرها .

وكانت المقطوعة الثالثة التى لم ترق فى نظر « هايدن » أكثر المقطوعات الثلاث نجاحا وقبولا فى الحفلة . وهى تعتبر اليوم خير هذه الثلاثيات .

ترجح الظن فى نفس « بيتهوفن » أن « هايدن » لا يريد له الخير ، وأنه سىء النية فيما يسدى إليه من النصح وإنما الحقد والحسد هما اللذان يمليان عليه مايبديه من نقد وإرشاد .

كان بيتهوفن آثما فى هذا الظن — « إن بعض الظن إثم » —

فظلم أستاذه وجار عليه ، لأن الحق يقرر فى أنصع صفحاته إخـــلاص «هايدن» للفن ، وتقديره للفنانين أياً كانوا ، فإن كان قد أخطأ فى تقدير بعض مبتـكرات «بيتهوفن» فإنمـــا يرجع ذلك ، ولا ريب ، إلى قلة إدراكه سمو المعانى التى كانت تحلق فيها تلك العبقرية الفنية ، ذلك بأن نتاجها كان فوق مستوى العصر فما كان بدعا أن يغيب عن الموسيقار الشيخ بعض النفحات الملهمة .

وفى عام ١٧٩٦ ظهرت لبيتهوفن المقطوعة الأولى من نوع السوناتة ، وقد أسماها عمله الثانى ( Opus 2 ) .

ومنذ عام ١٧٩٩ دخل « بيتهوفن » فيما يسمى بالدور الثانى من حياته ، ودخلت مؤلفاته فى دور جديد أسمى ، تجلى فيه روح الألم وعبرت موسيقاه عما يلقاه فى حياته من أسى . وكانت من باكورة مؤلفاته فى هذا الدور السوناتة المحزنة ( الباتيتيك Pathétique ) تلك المقطوعة الرائعة الخالدة الملأى بأعمق التعبير عن العواطف والبطولة .

وفى ذلك العام أيضاً ظهرت له أولى مقطوعات « السنفونى » التى يستلزم أداؤها فرقة موسيقية كبيرة ، تلك هى « سنفونى دو ماجير » وتعرف الآن بالسنفونى الأولى لبيتهوفن .

ارتقى بهذا النتاج إلى ذروة المجد ، وحلق به فى سماء الخلود حتى بلغ مكانة « موتسارت »

ولحن قصيدة « أدليدا » للشاعر «متيسون» فبزّ بها كل ماسبقها من الأغانى حتى أطلق عليها « أنشودة الأناشيد »

والحق إن الأدب الموسيقى لايعرف قطعة غنائية وضعت لآلة البيانو يمكن أن توضع إلى جانب هذه الأنشودة فى قوة التأثير ، وصدق التعبير عن الشعور .

كان الموسيقار « رايشارت » وهو شيخ علته كبرة السن ، أول من لحن قصائد « جيتا » لتكون أغنيات ، ونال بذلك سمو المكانة ، ونباهة الذكر . فلما ظهر تلحين « بيتهوفن » لقصيدة « أدليدا » غطى على ما كان لذلك الموسيقار من شهرة ، وانتحى بنتاجه زوايا النسيان . فقد تجاوز « بيتهوفن » فى هذا التلحين الحد الذى كان يتصوره الناس ، أو يقع إلى خيالهم فى ذلك العهد .

وعجيب أن تظل هذه القصيدة مهملة بعد تلحينها أكثر من عامين ، فلقد لحنها فى عام ١٧٩٨ ولكنه لم ينشرها إلا فى عام ١٨٠٠ ، ولم يرسلها إلى ناظمها الشاعر « ما تيسون » إلا فى شهر أغسطس من ذلك العام برغم أن « بيتهوفن » أهدى تلحينها اليه .

وأرسل وقتئذ « بيتهوفن » إلى الشاعر خطاباً يقول فيه :

« أبعث اليك فى هذا الكتاب بقطعة من تلحينى أغفلها النسيان لدىّ سنتين أو يزيد ، وأحسب أنه لم يقع إلى علمك شىء عنها قط ، وشد ما يخجلنى ذلك ، وأرجو المعذرة . ولا أدرى كيف أهدى إليك شيئاً صادرا من أعماق قلبى ، حملتنى عليه حرارة التقدير ، ثم لا أرفعه اليك ، أو على الأقل أنبئك به ؟ قد يكون السبب فى ذلك جهلى محل إقامتك أولا . وقد يكون أيضاً حيائى ، وشعورى بأننى

تعجلت فأهديت اليك شيئاً قبل أن أتثبت من أنه سيصادف منك قبولا . بل إنى لأرسل اليك الآن هذه القصيدة وأنا لا أزال خائفاً وجلا . أنت تعرف حق المعرفة أثر السنين فى الفنان ، وكلما تقدمت به الأيام فى تحصيل فنه ، وأتسعت فيه خطاه قلّ رضاؤه عن نتاجه الأول .

أصدق الظن أن يروقك تلحينى لقصيدتك الرائعة « أدلبيدا » ، وأن يصادف من شاعريتك ارتياحاً يحفز على ابتداع قصيدة أخرى من طرازها . إذن فسأستجمع كل قواى لتصوير لحن موسيقى يساير روعة شعرك .

وأرجو أن تعتبر هذا الإهداء دليلا على اعترافى بجميلك وتقديرى للسعادة الروحية التى ينقلنى اليها شعرك دائماً ، فى الماضى ، وفى المستقبل . . . »

شق نتاج « بيتهوفن » فى ذلك العام طريق المجد لتلك العبقرية المتلألئة ، وكان لهذا النجاح الفنى أثر ملموس فى حالته المادية ، إذ أقبل الناشرون على كل ما يخرجه من نتاج ، يتسابقون فى الحصول عليه ، ويتنافسون فى شرائه ، ويدفعون فيه ما يطلبه من أجر دون مساومة .

ذلك فضلا عما كان يلقاه من جماعة الأشراف والنبلاء من صدق المعونة ، وعظم البر ، فقد أمر الأمير « ليشنوفسكى » أن يصرف لـ « بيتهوفن » ٦٠٠ جولدن ( حوالى ٥٠ جنيهاً ) فى العام كمرتب شرف إلى أن يجد له وظيفة ثابتة .

وكان « بيتهوفن » يشعر بعلو كعبه فى الفن ، ويحس سمو منزلته

فيه ، و يثق فى متانة قوته ، وكفاية قدرته ، يتنبأ رفعـــة قدره ، وما ستكتبه له الأيام من تقدير العـالم فى سجل الخلود .

وقد جلى عن ذلك رسالة كتبها إلى صديق له فى مدينة « بون » قال فيها :

« تلك البلاد الجميلة التى نيطت بها علىّ تمائمى وكانت أول أرض مس جلدى ترابها ، وأبصرت عيناى فيها أشعة الضياء لأول مرة ، لاتزال رائعة الجمال ، باهرة الحس ماثلة فى ذهنى بأبهى مما تركته فيها . ولعل أسعد أوقات حياتى تلك الفرصة التى أحظى فيها برؤيتكم مرة أخرى وأبتهج بتحية أبينا «الرين» . ولـكن متى يكون هذا ؟ ذلك ما لاأستطيع تحديده . غير أنى أستطيع أن أؤكد لـكم أنكم ستلقوننى عظيما ، لا من حيث الفن والسمو فحسب ، بل ستجدوننى إنساناً أحسن وأكمل . ولئن تحسنت أحوال وطنى ، لقد أضع فنى فى خدمة فقرائه . . . »

وكان من أحسن خلال « بيتهوفن » وأطيب صفاته ، عرفانه بالجميل ، وعدم نكران مايسدى اليه من معروف . يشهد بذلك ما حدث من أنه بعـد أن احتل الفرنسيون مدينة « بون » وقع أهلها فريسة للضنك والفاقة ، وأصابهم كثير من البؤس والشقاء ، وبخاصة أفراد فرقة البلاط ، وهم إخوان « بيتهوفن » وزملاؤه ، فقد انقطع عنهم مورد رزقهم ، ونضب معين دخلهم . ومن أولئك الموسيقار « ريس » صديق « بيتهوفن » الذى وقف إلى جانبـه فى ساعات شقائه يمده بالعون والمال فكان فى صداقته مثال الإخلاص والتضحية . كاد ولده

«ريس الصغير» يبلغ سن الرشد . وكان قد تلقى على والده القدر الكافى من دروس الموسيقى النظرية والعزف بالبيانو . وإذ أراد الوالد أن أن يستكمل ابنه ثقافته الموسيقية فقد بعث به أولا إلى « ميونخ » ثم إلى « فينا » .

فى أواخر شهر مارس سنة ١٨٠٠ دخل على « بيتهوفن» فى فينا شاب فى السادسة عشرة من عمره ، وفى يده رسالة فضها « بيتهوفن » فإذا بها من والد الشاب . كان « بيتهوفن » فى تلك الآونة مشغولا بإنجاز «الأوراتوريو » الخالد « ألمسيح عند جبل الزيت » . فبعد أن أتى على الرسالة سراعاً خاطب الشاب قائلا :

— لا أستطيع الآن الإجابة على هذه الرسالة ، ولكنى أرجوك أن تكتب لوالدك أننى مانسيت ولن أنسى موت والدتى . وسيجد أبوك فى ذلك الكفاية »

لم يخب ظن « ريس » فى صديقه « بيتهوفن » . فلقد قام بنفسه على تعليم ولده العزف بالبيانو . وكان فى ذلك غاية فى جميل الرعاية ، وحسن المعاملة . إستمع إلى الشاب يصف ذلك فيقول :

— كان « بيتهوفن» معى على غير عادته ، غاية فى الصبر والأناة ولقد كتبت إلى والدى أصف له الكثير من حسن رعايته ، وجميل صنيعه ، ومعاملته التى سارت على وتيرة واحدة ، نهاية فى اللطف وغاية فى الرقة ، ولم تتغير إلا فى القليل النادر جدا . تلك المعاملة التى تجلى فيها تعلقه بوالدى وحبه له . لقد كان يتركنى أكرر الشىء عشر مرات

وأكثر وكنت إذا أخطأت فى طريقة العزف يتغاضى فاذا أخطأت فى التعبير ، أو فى طابع المقطوعة خرج عن حلمه واستشاط غضباً .

وفى الحق كانت معاملة « بيتهوفن » لتلميذه « ريس الصغير » معاملة الوالد لولده . حتى لقد كان يمده بالمال كلما بدت حاجته إليه . بل لقد ألحقه فى ربيع العام التالى معلماً للموسيقى فى بيت أحد أشراف الروس « بفينا » « الجراف براوينى »

فلما أقبل الصيف اصطحبت أسرة « براوينى » معلم الموسيقى الشاب معها إلى « بادن » إحدى ضواحى « فينا » ومكان اصطياف الطبقة الراقية من أهلها . وإذ كان النبيل « براوينى » شديد التعلق بالموسيقى والموسيقيين فقد كان كثيرا ما يقيم فى المساء حفلات يدعو إليها طائفة كبيرة من هواة الموسيقى وعشاقها . وكانوا جميعاً من أنصار « بيتهوفن » ومحبيه .

كان « ريس الصغير » يعزف فى تلك الحفلات مقطوعات « بيتهوفن » تارة من النوتة وأخرى من ذاكرته .

وفى إحدى تلك الحفلات ، بعد أن فرغ « ريس » من عزفه عدة مقطوعات لبيتهوفن ، ارتجل مارشاً من مخيلتـه . سمعت ذلك إحدى النبيلات المتقدمات فى السن وكانت شديدة الإعجاب ببيتهوفن ، لدرجة لا توصف ، وإذ اعتقدت أن هذا المارش الجديد لبيتهوفن . فقد تأثرت به تأثراً بالغ الحد ، وأعجبت به كل الاعجاب .

وبلغ من فرط سروره به أن خطر « ريس » إلى مجاراتهـا حتى لا يسلبه هذا السرور فتركها فى اعتقاده .

وتصادف أن حضر « بيتهوفن » فى اليوم التالى إلى بيت ذلك النبيل فقوبل فيه بعاصفة من الإعجاب والإطراء — وبخاصة النبيلة المسنة التى بالغت فى تهنئته بمارشه الجديد وابتداعه الرائع فيه . فلما ظهرت على « بيتهوفن » علامات الدهشة انتحى به « ريس » ناحية أوقفه فيها على جلية الأمر . فحمله حبه الجم لتلميذه على السكوت والإغضاء

طاب الجميع إلى « ريس » إعادة عزف هذا المارش فأخذ فى عزفه . ولكنه كان فى هذه الليلة أسوأ منه فى الليلة السابقة فقد أوقعه فى الارتباك قرب أستاذه منه ، وإنصاته له .

ولقد أشار « بيتهوفن » إلى ذلك فيما بعد فى حديث له مع تلميذه « ريس » فقال :

— أرأيت ؟ هؤلاء هم أكثر الناس معرفة بالموسيقى . وهم الذين يزعمون أن فى استطاعتهم الحكم على كل نتاج موسيقى حكما فنياً دقيقاً . إن المرء لا يحتاج إلا إلى أن ينسب النتاج إلى شخصية محبوبة ، فيفوز بالإعجاب والتمجيد »

* * *

وإذ كان « بيتهوفن » يميل إلى المعيشة الريفية فقد كان كثيراً ما يرحل إلى الخلاء لينعم بالهـدوء ، ويتمتع بالراحة . وكان تلميذه « ريس » يضطر إلى اللحاق به لأخذ دروسه . وكانا بعـد أن يتناولا

طعام الفطور معاً يخرجان للتجوال بين الحقول والنباتات فلا يعودان إلا قبيل الغروب . بعـــد أن يتناولا بضع لقيمات فى مطعم متواضع فى الطريق .

حدث مرة ، فى أثناء تجوالهما ، أن سمع « ريس » صوت ناى لأحد الرعاة المتجولين فى الغابة . وكان صوت الناى ينبىء عن سذاجة تلك الآلة المصنوعة من القصب . إنما كان عزف الراعى جيداً متقناً . نبّه « ريس » أستاذه « بيتهوفن » إلى جمال صوت الناى . أنصت « بيتهوفن » مصيخاً بسمعه إلى مصـدر الصوت ، ولـكنه لم يسمع شيئاً . ظل ينصت قرابة نصف ساعة بغير طائل .

ولـكى يتخلص التلميذ من هذا الموقف المؤثر ، ولـكى لا يجرح عواطف أستاذه أسرع فنفى وجود صوت الناى ، وإن كان لا يزال عالياً مسموعاً ، فقال :

— إنى كذلك ، يا أستاذى لم أعد أسمع شيئاً .

لم تكن هذه أول مرة لاحظ فيها « ريس » ثقل حاسة سمع أستاذه ، ولـكنه لم يشأ أن يقفه على علمه بهذا المصاب ولو اضطر فى سبيل ذلك للـكذب . فتابعا سيرهما فى صمت رهيب .

لم يكن « بيتهوفن » يجهل هذه الحقيقة أيضاً ، فقد كان يعرفها ، إنما كان يحاول إخفاءها . فقـــد لاحظ منذ عام ١٧٩٧ تقريباً ضعفاً يتزايد فى حاسة سمعه ، تلك الحاسة التى هى أعز ما يملكه الموسيقى حتى كان يقول فى أول شعوره بهذا المرض « إنى أسمع أزيزاً وصفيراً » .

وكان الناس إذا خاطبوه ولم يجبهم نسبوا ذلك إلى تشتت فكره ، وانشغال باله . أما هو فكان إذا تحدث إليه بعضهم فى صوت طبيعى لا يسمعه شق عليه ذلك ، فإن تبين أن المتكلم اليه يرفع صوته ليسمعه زاد غضبه ، واشتد تأثره

إذن فقد اجتهد « بيتهوفن » فى أن يكتم هذا الأمر عن جميع الناس لأنه كان يخجل منه . ولكن المصيبة تفاقمت وفدح الخطب .

أصبح « بيتهوفن » إذا ذهب إلى المسرح لابد أن يجلس فى الصف الأول حتى يتمكن من سماع الممثلين ، وأصوات الموسيقى . وكان يتعذر عليه سماع أعلى الأصوات وأحدّ النغمات إذا جلس متأخراً .

اعتزل « بيتهوفن » الناس ، وعمد إلى البعد عن الجماعات حتى لا يشعر أحد بصممه . ولقد تردد على كثير من الأطباء واتبع مشورتهم ، وعمل بما نصحوا له به ، فلم يجده ذلك فكف عن الانصياع لهم وأهمل مشورتهم .

وقد سبب له ذلك الصمم من البؤس ما جعله يفكر فى التخلص من حياته . ولعل ذلك يتجلى فى الرسالة التالية التى كتبها فى ٢٧ يونيه سنة ١٨٠١ إلى صديقه «فيجيلر Wegeler » فى مدينة « بون » يقول :

« منذ ثلاثة أعوام وأنا أحس اطراداً فى ضعف سمعى . إنى لأسمع فى أذنى أزيزاً وصفيراً لا ينقطع ليلا ولا نهاراً . أستطيع أن أقول لك إننى تعس فى حياتى ، وقد حاولت طوال السنتين الماضيتين أن أتباعد عن المجالس ، لأنى لا أريد أن يعرف الناس عنى أنى أصم . ولو

كانت لى مهنة أخرى خلف المصاب ، وهان علىّ الأمر ، ولـكن ، ومهنتى الموسيقى فإن المصاب أسوأ ما يتصور » . . .

وكتب « بيتهوفن » بعـد ذلك رسالة إلى صديق فى نوفمبر سنة ١٨٠١ يقول فيها ، لقد خف ما كان يحسه من الأزيز والصفير فى أذنيه ولـكن حاسة السمع أصبحت أسوأ مما كانت عليه .

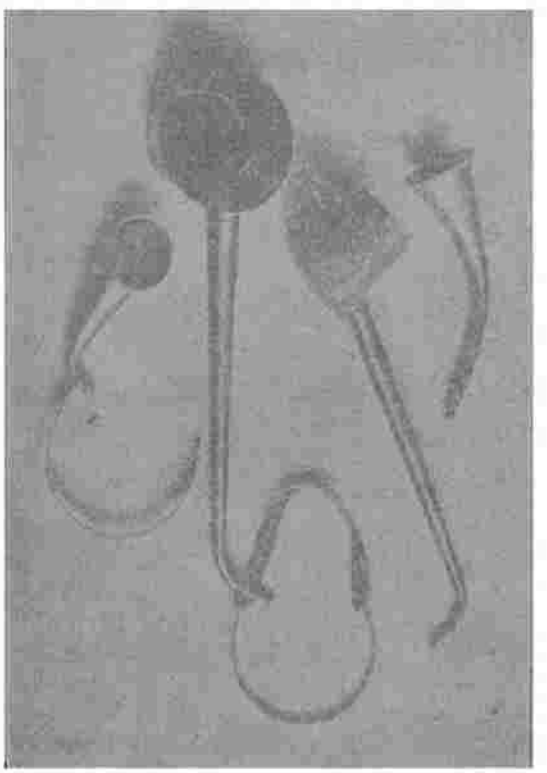

ولقـد كان « بيتهوفن » قوى الإيمان بالله ، شديد الاعتقاد بالقضـاء والقدر موقناً بالبعث والنشور .

كان من أحب الـكتب اليه كتاب فلسفى اسمه « تأملات فى بدائع الخالق » استعاد قراءته أكثر من مرة وخط بقلمه تحت جمل منه كانت موضع اهتمامه بصفة خاصة ننقل منها ما يأتى :

صورة الأدوات التى كان يستعملها لتقوية السمع

« اللهم إنى لا أرجو إلا أن تقومنى » . وجملة أخرى وردت على لسان حال الشمس فى باب تأملات خلقها ، و إنها مصدر الخيرات : « فى المكان الذى أشرق عليه أوزع الخيرات بين الناس ، تلك الخيرات التى استمدها من الله أوزعها على المخلوقات جميعاً

بالقسطاس فى غير أنانية يفيدون منها وينتفعون ، وفى ذلك درس لكل امرىء ، فيه عزاء ، وقوة ، وغذاء »

وجملة أخرى على لسان الخالق جل وعلا : « إن أكرمكم عندى أكثركم لى طاعة . وليست المخلوقات إلا آلات أتصرف فى مصيرها كما أشاء »

وقد يجلى عن شديد إيمان بيتهوفن واعتقاده فى البعث ما ورد فى رسالة إلى أحد أصدقائه يشكو فيها صممه ويصور فيها فداحة مصابه فيقول :

« لو لم أكن أخاف عقاب الآخرة لتخلصت من حياتى بنفسى ، ولأقدمت على الانتحار بإرادتى »

إذن فقد كانت هذه المصيبة هى الداهية الدهياء التى أصيب بها هذا الموسيقار الكبير ، بل كانت هى السبب فى عزلته عن العالم شيئاً فشيئاً حتى حجب عنه ، ذلك بأن ضعف حاسة سمعه انتهى به إلى الصمم الكامل على نحو ما سنبينه فيما بعد .